

المفكر الفرنسي إدغار موران

إصلاح الفكر هو إصلاح اجتماعي وذاتي في آن

أجرى الحوار: لورانس بارانسكي L.Baranski [*]

بدا المفكر الفرنسي إدغار موران في هذا الحوار كما لو كان يبحث عن منفسح إضافي لنقد العيوب المروعة التي أصابت الفكر الغربي بالصميم في زمن العولمة. يتركز هذا الحوار الذي أجراه معه الباحث لورانس بارانسكي على مسارات التفكير في أوروبا على الخصوص والغرب عموماً، هذا إلى جانب الملاحظات التي قدمها موران حيال جوانب شتى، ولا سيما الجانب المتصل بإصلاح الفكر بوجهيه الاجتماعي والذاتي.

المحرر

◀ **لورانس بارانسكي:** لقد تفاعلت بحماسة مع مشروعنا للعمل حول موضوعة التعالق بين التحول الشخصي والتحول الجمعي، لماذا؟

إدغار موران: فكرة إصلاح المعرفة، إصلاح الفكر، هي إحدى الأفكار التي أثريها منذ وقت طويل، إنه المشروع الذي نجده في كتاب "المنهج" la Méthode ولكنني مقتنع أكثر فأكثر بوجود الكلام رهنأ على إصلاح الذهن (بمعنى Mind) إصلاح "شيء ما" أكثر عمقاً، أكثر شخصية، أكثر ذاتية؛ أي في المقام الأخير، إصلاح الكائن، إصلاح أنفسنا.

وعلى نحو أكثر دقة أنا أنطلق مما أسميه الثلاثية الإنسانية التي تُبين أن كل واحد منا هو في آن: "فرد"، و"جزء من نوع"، و"جزء من مجتمع"، نحن في المجتمع، ولكن المجتمع فينا من خلال

*- هذه المقابلة مع المفكر الفرنسي إدغار موران E. MORIN، أنجزها لورانس بارانسكي L.Baranski، ونشرت في "مستعرض علم وثقافة" - باريس - 2001، transversal science et culture وفي مجلة "سيكولوجية الدوافع" "psychologie de la motivation".
- ترجمة: د. عفيف عثمان. مراجعة: كريم عبد الرحمن.

لغته، ومعاييره، وإيديولوجياته، وفي قدرتنا على التوالد نسمح للنوع البشري أن يستمر مع بقائنا جزءاً منه. وكل واحد من هذه المسائل يتكرر؛ أي إن كل واحد يُولد الآخر وهو متولد منه، كل واحد "سبب" و"نتاج". وهذه المسائل الثلاث وثيقة الصلة، بعضها يكمل بعضه الآخر، ومتراكبة الواحدة في الأخرى.

في هذا التصور يمكن تركيز كل شيء في الإصلاح الاجتماعي وحده، علينا التخلي عن هذه الفكرة، والمحاولات كلها لإصلاح المجتمع انطلاقاً من البنى قد أخفقت. اليوم، كل ذهن مانوي (ثنائي)، دوغمائي أو متطرف، سيسهم في شيء أسوأ مما يُحاربه. هذا النمط الثوري من المقاربة لا يُفسد الثورة نفسها فحسب، ولكن يفسد المجتمع الذي ينجم عنها. على هذا النحو، فبقدر أن المناضل بوصفه محركاً اجتماعياً يكرس نفسه للآخر، ضروري في مجتمعنا، بقدر ما أن المناضل كما عهدناه يبدو لي اليوم أكثر ضرراً من كونه مُفيداً. بالتأكيد، الواقع معقد، فبعض المناضلين المنحازين يمكن أن ينجزوا أعمالاً نافعة في هذا المكان أو ذاك. مع أنه، وعلى مستوى أكثر جوهرية لم يعد هذا النموذج ملائماً. وانطلاقاً من الأخذ في الحسبان الحدود الثلاثة ("فرد"، "نوع"، "مجتمع") فإن على الإصلاح بالضرورة أن يمر بإصلاح الفرد: ويصبح هكذا إصلاحاً ذاتياً.

لنأخذ مثل التعليم: وحدها الأذهان التي جرى إصلاحها يمكن أن تصنع إصلاحاً مؤسسياً يتيح هو نفسه تشكيل مزيد من الأذهان الخاضعة للإصلاح. وإذا لم يكن هناك ومنذ البداية بعض الأذهان التي جرى إصلاحها فإن الإصلاحات كلها تبوء بالفشل، لهذا فأنا لم أعد أعتقد مطلقاً بالإصلاحات الشاملة المقررة من هذا الوزير أو ذاك، وذلك بكل بساطة لأن الأشخاص المهمتين بتطبيقها هم في الأغلب عاجزون عن ذلك. وبوصفي نصيراً للفكر المركب (La pensée complexe) فأنا أعلم أنه لا يكفي أن نلوّح بكلمة "مُركب" كي نُصلح الأذهان. فمريدون قليلو التأهيل، وغير واعين لسمة المركب التي تحويها كلمة "مُركب" يمكنهم ارتكاب حماقات بقدر أو أكثر من الآخرين، إذاً، لا يمكن الإصلاح إلا إذا كان عميقاً.

الوعي الذاتي

لورانس بارانسكي: كيف ترى أنت نفسك هذا الإصلاح الذاتي؟

إدغار موران: علينا أن ننمي وعينا الذاتي، في حين أنه لكي يكون هناك وعي ذاتي يفترض وجود معرفة ذاتية، وهذه الأخيرة نفسها تفترض معرفة موثوقة. وأنا آخذ بجدية عالية عبارة باسكال (Pascal) التي تُزين الفصل الأول من كتابي القادم حول "الأيقنا" (علم الأخلاق) " العمل على حُسن التفكير، هو مبدأ الأخلاق"، وهذا لا يعني أنه يكفي التفكير على نحو صحيح لكي يكون المرء



من سيرته الذاتية

Edgar وعالم اجتماع فرنسي معاصر. ولد في باريس في 8 يوليو 1921. من أهم مؤلفاته "الأحمق الغبي هو من لا يفكر" وهو مؤلف موسوعي من 100 جزء، "السينما أو الرجل الخيالي" " Cinéma ou l'homme " و "imaginaire" وكذلك من أهم مؤلفاته "وحدة الإنسان" و "الإنسان والموت".

حياته

في بداية القرن العشرين هاجرت أسرة موران من سالونيك في اليونان إلى مرسيليا. ثم إلى باريس حيثُ ولد إدغار هناك.

حين غزا الألمان فرنسا في عام 1940، قام إدغار بمساعدة اللاجئين وانضم إلى المقاومة الفرنسية. واستخدم اسم موران اسماً مستعاراً بوصفه عضواً في المقاومة الفرنسية.

قام بتأسيس مجلة Arguments في المدة (1954-1962). وقام بإصدار كتابه Autocritique في سنة 1959. ينتقد فيه الفكر الماركسي ويعلن خروجه من الحزب الشيوعي.

في سنة 1960 سافر إدغار إلى أمريكا اللاتينية وقام بزيارة البرازيل، تشيلي، بوليفيا، بيرو، المكسيك. ثم عاد إلى فرنسا ونشر كتابه 'L'Esprit du Temps', a work on popular culture.

مؤلفاته

ثقافة أوروبا وبربريتها.

إلى أين يسير العالم.

هل نسير إلى الهاوية.

الفكر والمستقبل مدخل إلى الفكر المركب.

عنف العالم مع جين بوديارد.

المنهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية.

المنهج الأفكار مقامها حياتها، عاداتها تنظيمها.

المنهج، معرفة المعرفة، أنتروبولوجيا المعرفة.

أخلاقياً. لا، يجب أيضاً امتلاك فكر "صحيح" (correcte)، فكر واع بالآثار المخربة لبعض النوايا الطيبة. كل فعل يجب تقديره مع الأخذ في الحسبان سمته الإيكولوجية " (البيئية)؛ أي جملة التحولات والانعطافات التي سنختبرها في الأوساط التاريخية والاجتماعية والثقافية التي سينشأ (أي الفعل) في داخلها، وهي أوساط لها، لا محالة، آثارٌ سلبية ومضادة تلك المبتغاة في الأصل.

إن الأخذ في الحسبان لـ " إيكولوجيا" الفعل يقودنا إلى يقظة، من دونها، ترانا محكومين بالعماء. وما أسميه فكراً مركباً يمكن تلخيصه في عبارة: العمل على حُسن التفكير وفي الأحوال كلها فإن المعرفة الوثوقية لا يمكنها أن تصنع "اقتصاداً" وسيلة لكشف الغطاء عن أحابيل المعرفة: الخطأ والوهم، وهذان حاضران على الدوام، وتنجم من نسبية تصوراتنا، من أنويتنا المركزية التي تشوش ذكرياتنا وطريقة رؤيتنا الأشياء ومن الكذب على النفس... هذه الظواهر كلها يمكن كشف سترها من الخارج من خلال المقاربات التحليلية، والنفسية (السايكولوجية) والعلاجية... وهذا أمر مهم.

ولكن الأهم أيضاً، تعليم معرفة النفس ومنذ نعومة الأظافر، في سبيل كشف الغطاء عنها في وقت مبكر. وأكثر من ذلك فبعض مصادر الخطأ والوهم ليست فردية بل ثقافية: مرتبطة بالمعايير، بالأفكار التي جرى تعلمها، وبالأفكار السائدة. يجب على الفرد أن يكون في وضع يسمح له بتحديددها ويحرص على عدم ترداد ما يسمع " مثل البغاء".

أخيراً، وفي بعض الدوامات التاريخية، ثمة أخطار من فقدان الطريق. وفي استنادنا إلى شومبفور (Chamfort)، يمكننا القول إن "المشكلة ليست في عدم قيام (المرء) بواجبه، المشكلة هي في معرفة ما واجبه في الظروف المضطربة". فبعضهم ظن أن واجبه الالتحاق بالماريشال بيتان (Pétain)، وبعضهم الآخر بالجنرال ديغول (de Gaulle)، واعتقد الشيوعيون أن واجبهم العمل لصالح الميثاق السوفياتي - الألماني. ونصل إلى هذه المشكلة الصعبة، وهي مقاومة الهستيريا الجماعية، إنها مسألة أساسية. وعبارة "نحن كلنا أميركيون" توضح المسألة. ويكفي مزيد من الهلع، والتفجيرات، والحرب الجرثومية... حتى نغوَّص فعلياً في الهستيريا.

ولا يمكن بالطبع حل هذه المشكلات في يوم واحد. إن بت أمرها يمر بفحص ذاتي، بنقد ذاتي (وهو، لا محالة، الحاجة إلى الآخرين)، إنه يتطلب الكثير من بذل الجهد على الذات، وعليه أن يعتمد على نظام تعليمي واع لوجود هذه المشكلات. يتعلق الأمر حقاً بمشكلة مركبة؛ لأن إصلاح

الذات يمر بفحص نقدي للمجتمع الذي نعيش فيه، وأيضاً بإنعام النظر حول كينونتنا البيولوجية. ويمثل هذا العمل جهداً تاريخياً حقيقياً، ويتطلب ثقافة موافقة له، والسؤال الراهن معرفة إذا كنا نملك الوقت لذلك، بمعنى أن قوى التدمير قد تسبق هذا العمل و"تبدد كل شيء في الهواء"، لكن هذا هو رهاننا.

لورانس بارانسكي: كيف تُدرك حضارتنا اليوم هذه المسألة، في رأيك؟

إدغار موران: أحد عناصر الأزمة الذهنية أو الأخلاقية للغرب تأتي من واقع أن أشخاصاً، في أمكنة مختلفة، شعروا بهذا الفراغ في دواخلهم، هذا النقص في الصلات كائن بين أذهانهم وكينونتهم؛ أي أجسادهم. الإضاءة التي حملتها أطروحة فريدريك لونيوار (F. Lenoir) حول دخول البوذية إلى الغرب مفيدة كثيراً في هذا الشأن، في حين أن البوذية في الشرق تعني إرادة إقصاء "الأنا" الخاص، محقة بطريقة تدخل (المرء) في تلك الحال التي تسمى "النيرفانا" (nirvana)، من خلال تدمير "الأنا - الذات"، أما المقاربة البوذية للغربيين فتهدف -خلاف ذلك- إلى نماء "الأنا - الذات" نفسها، وليس "الأنا الأنانية" بالتأكيد، ولكن "الذات الفاعلة" (moi sujet). ونرى هنا ظهور مسألة جوهرية: تصور الفاعل (sujet)، وهذا التصور مفقود في الغرب، وأنا حاولت من خلال أعمال النظر والكتابة تأسيسه.

ماذا يعني "الكائن الفاعل؟" يتميّز الفاعل بمبدأ التضمين (inclusion)، وبمبدأ الإقصاء (exclusion). هذا الأخير، يعبر عن واقع أن أحداً لا يستطيع أن يقول "أنا" بدلاً مني، ولا حتى شقيقي التوأم. يتعلق الأمر هنا بأنوية ذاتية، لأنني أضع نفسي في قلب عالمي لأنظر إليه وأتدبره. ومع ذلك، لا يقود هذا إلى الأنوية الذاتية، لأن الفاعل يستجيب في الوقت نفسه لمبدأ التضمين: وهذا يتيح لنا تضمين من يخلصنا (الزوج، العائلة، الوطن)، وأن نكون على علاقة معهم، بسلوكات أنانية أو غيرية، بهذا القدر أو ذاك، وهكذا يرى الفاعل نفسه منشطاً بفعل هذا المبدأ الثنائي للذاتية. والأمر هكذا، لا تكمن المشكلة في نفي "الأنا" أو في التسامي بها، ولكن في منحها معنى، القوة، والمسؤولية في امتلاك سلطة الانفتاح الذاتي والنظر إلى مبدأ التضمين الخاص بها في كليته.

الوعي الكوكبي

لم يعد الوعي اليوم عائلياً أو وطنياً أو ثقافياً، بل كوكبياً، وترقيته مسألة حيوية، ونعود هنا إلى

فكرة ضرورة وجود معرفة وثوقية، تتيح تضمين السياق الكلي، وليس ما يسود في أذهاننا المُشكلة بوساطة النظام التعليمي الحالي، الذي -بعمامة- يأخذ في حالات قليلة بهذين البُعدين.

يجب علينا أن نُعيد أنفسنا إلى الكون، الذي نعرف أنه ذاهب نحو التبعر والموت، والذي يشير إلينا بموقعنا الصغير الهامشي والطرفي، ومعارفنا في هذا المجال تعزز هذه الفكرة القائلة بأن مسكننا هو الأرض. وهذا، يسوّغ، بالنسبة لي، ما أسميته "إنجيل الضياع" (L'évangile de la perdition): فنحن ضائعون على هذه الأرض، في الكون، فلنساعد بعضنا بعضاً إذاً، عوضاً عن صنع حرب بعضنا على بعضنا الآخر. وهو خلاف "الإنجيل" الذي يقول لنا إن خلاصنا مرتبط بكوننا "لطيفين" مع الآخرين. لا، علينا أن نكون "لطيفين" لأننا ضائعون! ولا مندوحة من إدراك سمة عصرنا الكوكبي، ولا يمكننا الامتناع عن واجب المعرفة هذا.

لورانس بارانسكي: ليس ذلك، بسبب أن "اللطافة"، هذا التبادل الدائري بين حب الذات وحب الآخرين، هو ما يحمل فرحاً أكثر إلى كل واحد وإلى الكل، والباقي يبقى سراً...

إدغار موران: بالتأكيد، هذا محتوى فيما قلته، ولكنك محق في الإشارة إليه. وبطريقة متصلة مباشرة، علينا ترقية "أثيقا الفهم" (une éthique de la compréhension). على المستوى الدولي، علينا أن نفهم طقوس الآخرين وأعرافهم. ومن المدهش استنتاج مدى صعوبة فهم أنفسنا بالانتقال من نموذج إرشادي (paradigme) إلى آخر، من نظام ديني إلى آخر. مع أنه يجب علينا أن نفهم بعضنا، ولهذا الغرض على كل واحد منا، بذل جهد تعاطف بإزاء الآخر "المختلف عنا".

وفي المنطق الثلاثي، فإن "أثيقا الفهم" هي أيضاً ثلاثية، تتميز بأبعاد ثلاثة: أثيقا للذات، ونحو الذات، وتبعاً للذات. أثيقا للمجتمع لا تتحقق إلا في الديمقراطية، مع حد أدنى من الحقوق والواجبات، واليوم، أثيقا للجنس البشري تجد أصلها في شروط المتحد ذي المصير الكوكبي.

ما هو خطير، على ما يبدو لي، والذي يؤشر إلى قصور مجتمعاتنا، تناقص الفهم لصالح الفردانية، والأنوية الذاتية، وللعوامل التي أفسدت وجوه التضامن. اليوم، يتزايد عدم الفهم، لم نعد نفهم بعضنا حتى داخل العائلة نفسها، وفي الوسط المهني نفسه، وفي المجموعة نفسها (لا سيما مجموعات المثقفين التي تتفلت في داخلها الأنويات المركزية بشدة)، وفي الجامعة نفسها. وما هو مؤلم ومخيّب للأمال، أننا نحوز أدوات فك أُلغاز المسائل النفسية وآلاتها، ما يتيح فهم هذه الظواهر، ومع ذلك نتابع ما نحن فيه.

كيف يمكن التفكير في تحسين العلاقات البشرية على المستوى الاجتماعي، والمستوى الكوكبي، إذا كنا عاجزين عن فعل ذلك على المستوى الفردي؟ ينقصنا الحد الأدنى من التنظيم النفسي، ولهذا فإن حياتنا يُكدرها عدم الفهم المتبادل، والكراهية. وعلى أتينا الفهم أن تؤدي هنا دوراً كبيراً، ومن الطبيعي حاجتها لأدوات، وهذا يفترض تدريباً داخل العائلة، ولا سيما في المدرسة، الممر الإجباري للكل، بما في ذلك مُدرّسو المستقبل.

لورانس بارانسكي: كيف يمكن بالضبط تحفيز بروز أتينا الفهم وتعميمه؟

إدغار موران: قال ألبير كامو (A. Camus) إنه "يمكن إنقاذ المجتمع بوساطة مجموعات صغيرة"، وأندريه جيد (A. Gide) "إن العالم لا يمكن إنقاذه إلا من خلال البعض". وفي العام 1945، في ذلك الزمن، كنت أعتقد أن في وسع الجماهير وحدها أن تنقذ البشرية. اليوم، أستحسن، وبيقين كبير فكرة أن كل شيء يبدأ بالمجموعات الصغيرة. لتعزيز الفهم، علينا المساعدة في تشكيل المجموعات التي تقترح تعليماً على الإصلاح الشخصي وربطها. ويغدو السؤال: كيف يمكن إنشاء مجموعات، شبكات، روابط تبعاً لفكرة الإصلاح الشخصي تلك، لإصلاح الذهن والعقلانيات؟ مرة أخرى أيضاً، كما في التاريخ غالباً، يجب البدء بشعب الضلال التي تنتشر والتي تنبث عبر المؤسسات: التعاونية، والاجتماعية والسياسية. ومن هنا، الفائدة في اقتراح موضوع التفكير هذا خلال المنتدى الاجتماعي العالمي الثاني في بورتو أليغري (Porto Alegre) (نهاية كانون الثاني/يناير من العام 2002). ولا يمكن الاكتفاء في هذا الإصلاح بالمبادرات الفردية وحدها، حتى ولو كانت مثمرة، مثل الدخول في نظام فلسفي "زن" (Zen) لاستخدام الغربيين، وممارسة اليوغا والتأمل المركز. ولنسجل أنه إذا كان التأمل من النمط الشرقي، الذي يقوم على "الوصول إلى الفراغ" (Le vide)، مُنتجاً جداً، فإنه يوجد أيضاً تأمل على النمط الغربي يقوم على التفكير فيما جرى عيشه خلال النهار، وما جرى فعله في وضع محدد...

وفي الواقع، فإن إصلاح الذهن هذا يطاول كل شيء. له طابع ذريّ، ولكن شيء موصول بسائر السياق الإنساني. يجب أخذه من الأطراف كافة، ولكن بالبدء من مشكلة الفحص الذاتي. يتعلق الأمر، في المقام الأخير، بتنمية إمكانات الذهن كلها.

مغامرة الحياة

لورانس بارانسكي: ألا توجد مخاطر انحرافات (مزالِق)، لأنه، وكما حددت أنت، أكثر الأنظمة الشمولية نشأت على فكرة الإنسان الجديد؟

إدغار موران: يجب على الإصلاح الفردي أن يُدرج في تصور شامل أنتروبولوجيا ما هو بشري، مع تلك الفكرة التي أنميها منذ مدة طويلة، بأن الإنسان العاقل (Homo Sapiens) هو أيضاً إنسان شيطاني (Homo demens)، قطبان لحقيقة واحدة. قضيتنا الإنسان العاقل والإنسان الصانع (Homo Faber) وحدهما - التي تنسى الإنسان الأسطوري (الميتولوجي)، الغرائبي، الديني، وحتى الإنسان الاقتصادي، والتي تنسى كل ما هو غير مؤسس على الفائدة، ولكن مؤسس على الأهواء، على الحب - تختزل الإنسان على نحو مُضِر. يجب علينا تغيير تصورنا عن الإنساني، بالنظر إليه جدلياً، وبيّان أننا لا نستطيع أبداً إقصاء أحد مكوناته. فالأمر سيكون كارثة لو كنا كائنات عقلانية فحسب، فالعقلانية المحضة غير موجودة، كما تحدد ذلك بدقة أعمال داماسيو (Damacio)، أو جان - ديديه فانسان (Jean - Didier Vincent). فهناك العاطفة دوماً، والمشاعر، التي علينا الإقرار بها كما هي، وذلك كله من غير تخطي الحدود.

المشكلة الحقيقية في فهم كل ظاهرة حية، هي في إضفاء الطابع الجدلي على العلاقات: كما بالنسبة إلى الحب، والذي هو في آن أوج العقل واللاعقل، الحياة مغامرة على الدوام. ليس لدينا موانع تقينا السقوط، ومن باب أولى، ليس لدينا إلا مبادئ تتيح إحداث التوالد الذاتي والضببط الذاتي.

إن فكرة الإنسان الجديد، يمكن بالطبع، أن تولد من علم الجينات (المورثات)، ولكن أي نمط من الإنسان الجديد يمكن أن يولده هذا؟ فنحن لا نستخدم إلا جزءاً ضئيلاً من إمكاناتنا النفسية، بما فيها إمكانات غير معروفة، ونحن بعيدون من استنفاد موارد الدماغ القديم هذا بعمر 100 مليون سنة، بل خلاف ذلك.

لورانس بارانسكي: فكرة "عالم آخر" للبناء، ألا تمثل أيضاً نقطة انطلاق جيدة؟

إدغار موران: نعم، لكن بشرط ألا يتم إفساد فكرة "عالم آخر" كما حصل مع الفكرة / المثال لـ "الإنسان الجديد"، ولاستبعاد هذا الخطر علينا تعلم، وقبل كل شيء، أن نشبك بإحكام التحول الشخصي والتحول الجمعي. وهذا يعني أنه من الجوهرى الانطلاق من الكوامن (ما هو موجود

بالقوة)، ويمكن القول من الدوافع، من التضامن. إنها تعاود البزوغ ما إن تقع الكارثة، لنأخذ مثلاً الهزة الأرضية في مكسيكو، أو واقعة برجى التجارة العالميين في نيويورك (2001)، فهذان الحدثان أثارا اندفاعاً قوياً للتضامن. التضامن البشري إمكانية تجد نفسها مكبوتة، وهي بالتأكيد غالباً ما تُلمس... لكن، بما أنه يوجد بلدان مثل باكستان وبنغلادش، وعدد من القضايا الحميدة... فإن الناس تجد نفسها مغمورة بالمشكلات، لكن هذا الإمكان موجود.

لورانس بارانسكي: بينت تجربة المنتدى الاجتماعي العالمي الأول أن هذه المبادرات كلها تتهددها التصدعات والانهيارات (داخل الأنظمة)، إذا لم تعالج مسألة التحول الشخصي؟

إدغار موران: من غير شك، وهذا يثبت أنه في وسعنا، ويجب علينا العودة إلى التقنيات القديمة الجيدة، ولا سيّما الخاصة بدينامية الجماعة. ففي لحظة محددة، على كل تجمع أن يعيد فحص نفسه: أين نحن؟ لماذا لا نفهم على بعضنا حول هذه المسألة؟ من نحن هنا؟ وماذا نفعل؟ هذا محتم، ويجب العمل عليه بانتظام. على كل حركة أن تتخطى في كل لحظة خطر التفتت بواسطة الفرق. إنها مغامرة الحياة، وإعادة التجدد الذاتي من خلال الحركة نفسها.